احـــــــراق مــكــتـــبـــــات بـغـــــداد

خارج المدى

شارع المتنبي

فاطمة المحسن

هل علينا أن نكتب مرثية لشارع المتنبي؟! رسالة الإستغاثة التي بعثها قاسم محمد تقول: تضامنوا معنا، نحن الذين لم يكن شارع المتنبي ملقانا ولا شربنا الشاي سوى مرة في مقهاه.

كان قبيل الاحتلال يطل علينا من الشاشات عبر وجوه رواده، ونسأل الشيب والأخاديد وبخار السنوات عن صاحب كان لنا، أو زميل رافقنا.ونقول: الله كم تغيرنا نحن لا هم. هم الثابتون في المكان ونحن الطارئون، العابرون الحدود الى حيث لاندري، والمارون على الأوقات حاملين أعفاشنا وذكريات بلت من فرط الاستعمال. ضجيج الوطن يملأ صدورنا بالدخان، وأكزمته تحكّ أصابعنا عندما نكتب.

وحين عدنا،هرعنا الى شارع المتنبي،نبحث عن أصدقاء أوهنهم انتظارنا. كنا قد دخلنا لعبة الاكتشاف، فاكتشفنا جهلنا. هكذا مرة واحدة. الأرائك الخشبية نجهلها والدخان والشاي، والصور والقبعات، حتى حسين الحسيني لم يكن هو رغم ابتسامة لصقت على شفتيه مذ غادرناه آخر مرة. غلبنا الدمع ونحن نحتضن حسين حسن، وغبش المنظر على عويناتنا .مشتاقون اليك يا بغداد. هكذا كنا نستنهض أيام انتظارنا في كل محطات البعاد. نكتب مثل أحصنة السباق، ونستحضر أرواح العراق ومباخره في كل مكتبات العالم.

وعندما عدنا، كان شارع المتنبي قد أزاح عناء التنقيب في الفهارس عن وطن الثقافة الضائع. فكأن ثقافته التي تباع على الأرصفة قد هونت علينا أمر تلك الجفوة التي نستقبل بها وطنا غير الذي نعرفه. كنا نقول لأنفسنا سيكون لنا مطرح هنا في يوم ما. وسنمر على حفر أسفلته ونقف على أرصفته، ونبيع الكتب مع باعته، ونشرب الشاي من مقاهيه، وسنبدل من طباعنا وطباعه،كي نعرف أنفسنا. أنانية البحث عن زمن العراق الضائع.

وهكذا توقف الوقت في ثانية. ولم يكمل بائع الخردة الصغير نداءه، ولا المؤذن جملته، ولا ساعة القشلة رنت منذرة بالهول. فقد توقفت عين الكاميرا على المشهد الرمزي لأفول خريفنا. أصاب الذي خطط تفجيره مقتلا. أصاب الموقع الفقير الشحيح مثل مثقفيه الذين حار بهم العراق، فرماهم وكتبهم في مقهى وشارع، كان اسمه، وياللمفارقة، " شارع المتنبي " .

كم انتم وحيدون!

فاضل السلطاني

عذراً يا شعراء بغداد، ومسرحييها، وفنانيها، وعشاقها
أيها المبجلون بالرماد، لم تصل أصواتهم بعد الى المثقفين العرب.
عذراً سلمان داود محمد، لم ير نيران قميصك، بعدُ المثقفون العرب.
عذراً يا نعيم الشطري، ضاعت صرختك في نثار الكتب.
عذراً يا محمد حميد، خذ أجدادك العباسيين الى البيت،
وابك هناك ما تشاء، فلا أحد يهتم للدموع
عذراً يا جاك بيرك، يا ماسينيون، يا أبا فرات،
أيها المدفون بعيداً، في مقبرة للغرباء،
في أشبار ضائعة من أرض دمشق،
لاننا أقلقنا نومكم العميق.
عذراً أيها القتلى، وانتم تقلبون الوردي،
وتتمعنون في ابن خلدون،
وتقرأون شيئاً من أبي نواس،
وتربتون على كتف عبد الرزاق الحسني،
وتتزودون بشيء من حكمة صاحب المقام.
لم نقرأ، بعد، بياناً عربياً بعد، ولم نر، بعد تواقيع عربية، فهو موت عراقي!
كل ما قرأناه افتتاحية لأحدى الصحف العربية الكبرى يذكر فيها رئيس تحريرها
ان احد المشاهدين طرح هذا السؤال على إحدى الفضائيات:
هل كان المتنبي شيعياً أم سنياً؟
عذراً لم يركم أحد، وأنتم تختفون هكذا فجأة مع أصحابكم الموتى..
من تتوقعون ان يراكم؟
ألا تتذكرون كيف كانوا يهرعون زرافات الى مرابد صدام حسين؟
ألم تسمعوا تصفيق الأيدي المشمرة وهم يصغون الى القصائد التي تتغنى بالقائد الضرورة،
بينما كانوا يتحدثون على موائد الليل عن المجتمع المدني،
والديمقراطية والتعددية.
وعلى بعد خطوات منهم، كنتم تئنون.. لم يسمعكم أحد!
كم انتم وحيدون أيها القتلى، وأيها الأحياء!
خبركم لم يصل بعد!
لكن مهلاً!
"الغارديان" البريطانية كانت أرحم.
هاهي أمامي صورة على صفحتين
من ورقها الثمين لشعرائنا الجميلين
وهم يلقون واقفين
قصائدهم فوق رماد المخطوطات والكتب!

الـــــرؤوس الـــتـــي تـتقـــدم نـحـــو المعـــرفـــة

قاسم محمد عباس

قبل أن نتوقف عند تأملات الشعراء الذين اجتمعوا فوق رماد الكتب في سوق السراي، يجب أن نشير إلى أن وقفة الشعراء هذه قد توقفت منذ قرون، فكل القصائد والحكم التي خرجت من أفواه من تجمع حول كتب ابن رشد وهي تحترق، أو تلك التي رددها تلامذة وأتباع كل جسد من الأجساد التي اعتاد العرب تعليقها على جذوع الأشجار، ككلمات قيلت من على الجذع تنادي : أيها المدينة لا تختنقي بي، أو أيتها النار لا تحترقي بي.

الأجساد والأطراف المتفحمة لأصحاب مكتبات شارع المتنبي تشير إلى دائرة قديمة ، قدم نشوء فكرة التكفير ، وتهمة الهرطقة.. دائرة بيضاء يدخل فيها صاحب المكتبة حاسر الرأس وحافي القدمين يلف حول عنقه حبل، كأضحية تقدّم إلى النحر، فيُقبل منها تضحيتها، السبيل الوحيد لبلوغ المعرفة.

ليست هذه الصورة اختراعا معاصرا ، فالأدبيات التي تناولت الكلام عن الوراقيين والمتداولين للكتب والأفكار، يعلمون تمام المعرفة أن هذا الطقس محفور في قلوب الصوفية المارقين على تحجر التكفير، وهو الطريق ذاته الذي يؤرخ لنا صورة حرق المتاجرين بالكتب ، ونساخ كثيرون ذهبوا ضحية شيوع ثقافة كهذه منذ عشرات القرون.

الشعراء الذين اعتلوا هيكل مركبة معاصرة أمام نافذة من نوافذ مقهى الشابندر، رفعوا رؤوسهم إلى حيث سيف لاح في الفضاء الذي أمام نهر دجلة القريب، ومحصوا فكرهم في رماد منثور فوق صفحة المياه القريبة

قلة من الشعراء أمّوا إلى نهر دجلة يحملون قصائدهم بالقرب من نحورهم في يوم مكفهر ملبد بالدخان وذرات الرماد المتطايرة من تلال الكتب المحروقة، وفدوا إلى النهر، إلى دجلة كجماعة دينية تحيي طقساً ما ، أو أنهم يستعيدون ذكرى جسد نثر ها هنا.

وقف الشعراء بالقرب من الضفة ينظرون حركة الريح الحاملة لأرواح الوراقين والنساخ ،وحاديهم ينوح وفي رأسه صندوق من خشب لطخته الدماء ، وشاعر فيهم يبطيء الخطا وهو ينزع جبته ويوقد فيها النار من فرط محبته، كشخصيات غامضة انفصلوا عن الجمع وطارت أرواحهم، يبحثون عن أنثى ضاعت ها هنا منذ ألف عام، لقد أرعبت كرامة هؤلاء الشعراء من وضع الجذوع هناك وصلب الكتب والأجساد في مذبحة بالقرب من مويجات خجولة ألفت مثل هذا الصلب من قبل .

بالقرب من النهر جدران ونوافذ علق عليها كتب مذبوحة ورؤوس لنساخ ، وبقايا مقالم واقلام قصب تناثرت بالقرب من أصابع المصلوبين . حاديهم الذي كان ينوح وهو يحمل رأسا من خشب، دعا وحذر من ساعة قادمة لمدمري بغداد وحارقي كتبها في هذه الضفة .

طيف بالرأس والشعراء يندبون الكلمات، ، كلمات رتقت سدا فتحه وثني قاتل أراد تحويل المخطوطات إلى رماد، وخزائن الكتب إلى قبور، هل ذبح الكتبيون فرادى أم علقوا جميعا على جذوع اصطفت على جدار السراي العالي ؟

أطفال غامضون رددوا القصائد هناك، كأصدقاء للمعرفة ، المعرفة التي بنت جدارا تمنع المدينة عن الوثنيين الجدد، الذين قصدوا إخفاء شهادة الحياة في شارع المتنبي أو درب الوراقين، ينوح حاديهم بصوت يقول : الأموات لا يعودون .هل بدا أن حرق الوثنيين لتلك الكتب قد تحقق ؟لقد أحرقت الأجساد وحكم على أطنان من الكتب بالموت لا النسيان ، لكن وسط الشعراء وقف الشاهد بنقل ببصره بين الحادي النائح والشعراء الباكين، حيث ظن السامعون إن الأموات لا يعودون، فانتظر الشاهد ساعة أخرى على الضفة يردد لغة يفهمها الشعراء ولا يفهمها غيرهم، استخار واستجار بالضفة، مستعينا بأذكار تشير إلى أن الموت هنا لم يكن كما يموت الناس ، وما قتل أصحاب المكتبة بالأجل، وسؤال باعة نجوا من مذبحة الوثنيين ، هل انتهت أرزاقهم أيها الشاهد ؟

الكتبيون الذين قتلوا ظلما، هم وراقون ناشرون أصحاب رخصة في البيع والنسخ، محتفظين بأصول المصنفات كما عرف وقرأ الشاهد منهم واحدا واحدا، فذكر لهم أن لكل قوم وراقهم، فلما انتهى الشعر جيء بوراق المعتضد ذكوان ، وقرأت الفاتحة على روح ابن أبي الدنيا وراق الصوفية ، وأبي الطيبِ وراق الجهشياري ، والحسين بن حبيش وراق الطبري،، فبكى الشعراء وناح نائحهم ، وذكر أولاد الخشالي، وعدنان ، وأبناء عبد الرحمن حياوي ، وخزانة مكتبة الرباط وغيرهم من وراقيي شارع المتنبي.

لربما تورط الشاهد في هذا الصباح وهو يعيد سيرة مشابهة، تختلط الهواجس وذكرى موت المكتبات ، هواجس تفضي الى شعور عصيب، يرى فيه الخيال وهو يعمل فتنمو الاحلام من أحلام الغائبين، ومن مذاكرة التاريخ والمصائر .

وخلص الشاهد إلى أن الشعراء قد انتابتهم رؤيا حرق قلب المدينة وروحها، يرون أنهم يقرأون نموذج وحيهم وروحهم الشعرية ذروة نالها الوثنيون بهذه النار، لم تكن هناك بطولة ، لم يكن هناك مجد ، فبغداد والنهر ، أو بلاد النخيل التي بنهرين تثمّن حس النادبين وراقيهم بالقرب من دجلة ،فعرفوا علل الظاهر والباطن ، وعرفوا أن الوثني الذي قاد عربة النار واحرق السوق لم يعطيه الخيال إلا فاكهة فارغة، وان قطاف اليقين لم تتح إلا لوراقين بوركت كرامتهم في حديقة من دم المعرفة المسفوح.

يتحدث البعض عن بغداد، ويؤصل كلماته بروايات يجمعها بالحرف، بلا حياة ، لا كتابة عنا إلا من هنا، فالواقف هناك لايرى ، والنازل هنا مبتلى، فأحلامنا هنا مرتبة، وأضغاثكم من بعيد ترضي الشامتين ، لا تشارك أحلامنا اضغاثكم الصاغرة الفزعة.

مـــن شـــــارع المـتـنـبـي والـــيـه..

محمد درويش علي

كان السير بين ركام وانقاض البنايات في الشارع، هو تذكر الشارع والناس الذين كانوا فيه، تذكر الاصدقاء الذين رحلوا، والذين ذهبوا الى المنافي مرغمين، والذين ولدت قصائدهم ورواياتهم وقصصهم في هذا المكان، كان عليّ ان اتذكر احمد خلف، وهو يضع كتب مكتبته الشخصية امامه في بداية الشارع، ويعلن عن بيعها ليواصل البقاء في زمن القحط، والفقر، كان عليّ تذكر حنون مجيد الذي كان يأنف من ان يقول كلمة في غير مكانها، فكان يبيع الكتب، ويتلقانا نحن اصدقاءه بالترحاب كل يوم جمعة، كان عليّ أن اتذكر علي مزاحم عباس الذي افنى عمره في البحث المسرحي، ولم يحصل على لقمة تكفيه، فكان يبيع الكتب هو الاخر، كان عليّ ان اتذكر عبد اللطيف الراشد وهو يجلس القرفصاء امام المجلات والكتب التي نهديها اليه، ليبيعها ويشتري بثمنها لفة فلافل، كان عليّ ان اتذكر اصدقائي من باعة الكتب مثل ابو وسام، وابو اشرف، وزيارة مهدي، وسعيد عبد الهادي واخوته الذين يشكلون مملكة من الادب والخلق الرفيع، كان عليّ ان اتذكر سليم بائع الروايات الذي هاجر الى موطن فوكنز، وكان عليّ ان اتذكر جلال حسن بحيائه وادبه وهو يبيع القواميس والكتب الادبية، كان عليّ ان اتذكر كريم حنش بلهجته الجنوبية التي لم تستطع شهادة الماجستير ان تغيرها، كان علي ان اتذكر فخري وصبغ شعره، وعلي خنجر ودأبه في استنساخ كتب التاريخ، وستار مجيد الذي كان يقدم لي الكتب بالجملة، وجاسم المحمداوي، وكريم فلسفة صديقي الذي اخذته الجامعة من السوق.

يا ترى هل نسيت ستار حتيته، وأبا سوران وابا عشتار ومازن لطيف وأبا ربيع وعبود وابا جمال، واكرم الفلفلي وابا رائد وسواهم من الاسماء هل استطيع نسيان عبد الخالق الركابي وفرحه الطفولي بحصوله على كتاب، وعباس لطيف وقصصه العاطفية وعدنان منشد وهمومه المسرحية، وناجي عبد الامير الذي كان يبحث عن الخلاص عبر هذا الشارع، وعبد الخالق محمود الشاعر البصري بقامته المديدة، هل استطيع نسيان محمد خضير ومحمد عبد الوهاب وحسين عبد اللطيف وكاظم الحجاج الذين كانوا يملأون الشارع بأخبارهم البصرية حينما يأتون لبغداد؟ هل استطيع نسيان محمد الحمراني وهو يضع اولى خطواته في درب الشعر، يتجول في هذا الشارع؟ وهل استطيع نسيان جمال جاسم امين وجمال الهاشمي وحسين الحسيني وجمعة عبد الله، ومحمد ثامر، وكاظم غيلان، ومحمد مبارك وسعد محمد رحيم.

نعم.. إن لنا في هذا الشارع جذوراً عميقة، هي تاريخنا الثقافي وتاريخنا الشخصي الذي يمتد معنا، الى آخر يوم في حياتنا المعلنة والخفية.

شـــــارع وصـلـيـــب

محمد الذهبي

الريح آتيةٌ
وبيتك من زجاج
اجتازت الطرق البليدة
حملت اليك عبادة أخرى
وأردية قصار
ورجعت تستفتي النجوم
آليت تنحت في الصخور
وطفقت تبحث عن ازار
الريح آتيةٌ
وتحمل بين فخذيها وليداً آخراً
بالأمس أنت خلف ذلك الجدار
سمع الانين
ولم يبشر بالوليدْ
شغلته احدى المفردات
متنبئٌ
قد نام ليلته
وايقظ داءه جرحٌ قديم
كانوا خيول الحرب
تعرف ما تريد
خرجت خيول الحرب من بين السطورْ
والحمحمات على
رصيف الشارع المنكوب
تنذر بالخراب
بالأمس قالوا شاعراً
حمل الصليب على لسانهْ
والآن قالوا
شارعاً
يحوي بداخله زمانَهْ
هو شاعرٍ
هو شارع
موتى وساروا خلف نعشٍ
ليس فيه سوى الحياة
احياء قد باعوا المماتْ
هي بعض اردية قصار
ومآذنٍ باعت أذان الفجر
فانهار
النهار